الفصل التاسع

عودٌ إلى التربية في البيت

تقدم لنا القول في أحد الفصول السابقة أن للتربية الأولية شرطين رئيسين: وهما السلطة بالإضافة إلى الوالد، أو المربي، والطاعة بالإضافة إلى الولد؛ لأنه إذا لم يكن الكبير ذا سلطة والصغير خاضعًا مطيعًا فسد عمل التربية، وضاعت النتيجة المقصودة منها.

علي أنه ينبغي للوالدين والمربين أن لا يكون سلطانهم مقرونا بالاستبداد، وأن لا يستعملوا العنف، أو التسامح في غير موضعهما.

فوضع الندى في موضع السيف بالعلى مضرٌ كوضع السيف في موضع الندى

وأن يعوّدوا الأولاد علي الطاعة والرضوخ حبًا لهما، واستأناسًا بهما، لا عن رهبة وخوف، وأن يبثوا في عقولهم حب الحقيقة، والصدق، والكره للكذب والرياء، حتى في المسائل الطفيفة، والأمور الغير المهمة؛ لأن تعويدهم علي ذلك في ما لا أهمية له يحملهم عليه متى كبروا في كل أمر ذي أهمية وخطارة، وليسمح لي أرباب العائلات أن أنتقد عليهم في هذا الموضع أمرًا يظهر لأول وهلة تافهًا لا أهمية له ولا تأثير، في حين أنك إذا أنعمت نظرك فيه، واعتبرت نتائجه وجدته من الأمور الهامة التي يجب أن يعنى الوالدون والمربون باجتنابها.

والأمر الذي أشير إليه بمثل هذه المقدمة ليس بنادر الحدوث، بل هو شائع في كل مكان، وهو مجاراة الولد في كل ما يريد ويشتهي، حتى يصبح أهلاً لأن يسمى بالولد "المدلل": وهي تسمية نطلقها علي صنف من الأولاد

يصبحون بسبب شدة حب وَلِيهم لهم، ومغالاتهم في مجاملتهم، وإفراطهم في مجاراتهم علي أهوائهم من شر الأولاد وأصعبهم مراسًا. وأن من الحب ما يضر، ومثل هذا الحب هو في الحقيقة بغض وكره.

أجل إن شر الأولاد الولد المدلل، وأكثر ما ترى هذا الصنف من الأولاد في البيوت التي لا يرزق الله أصحابها بنين عديدين، فإذا كان للأم ولد وحيد، وكانت غير حائزة صفات الأمومة الحقيقية، حسبت أن تأديب هذا الولد الوحيد وتربيته يعدمانها إياه، وفضلت أن تراه عادمًا كل الصفات الجيدة والأخلاق الحسنة علي أن تنتهره، أو تزجره مرة واحدة.

وقد رأينا مرة في الساعة السابعة من المساء في متنزه الرمل والدًا يطلب لابنه وعمره خمس سنوات صنفًا من الحلوى لم يكن موجودا. فما كان منه إلا أنه أخذ يستعطف الولد، ويقول: إذا لم يكن من هذه الحلوى في الرمل، فإن الإسكندرية ملأى منها، فهل تريد أن أذهب وأحضر لك منها؟

وحدث بعد ثلاثة أيام أن هذا الأب جاء بولده إلى المنتزة في مثل تلك الساعة، فالتمس الولد كأسًا من شراب الورد، ولم يكن في قهوة المنتزة منه، فامتعض ونظر إلى أبيه قائلاً: رح إلى الإسكندرية وهات لي الشراب...

ومن حظيات ولد آخر "مدلل" ما حدث يومًا في منزل أحد وجهاء الإسكندرية، وكان غاصا بالناس، ولا نذكر أكان ذلك لعرس، أم لعماد؟ فخطر للولد المدلل أن يربط في عنق أخته –وهي أكبر منه– منديلا ويجرها به. وكان أبوه وأمه في جملة الحضور، فما عبس أبوه له، ولا انتهرته أمه، بل قالت: أخاف أن أردعه فيتكدر ويمرض.

ويقرب من ذلك جواب إحدى السيدات، وقد سُئلت عما تقضي به

نهارها فقالت: "إنني اشتغل بتدليل أولادي". ذلك كان جوابها، ولكنها أدركت بعد ذلك بالتجربة أنها كانت مشتغلة في إعداد مستقبل سيء لها ولأولادها معًا.

وقد يقول الذين يطّلعون علي هذا الكلام أنه أي شر، وأي بأس في تدليل الولد الصغير في سنه الأول، وهو لا يدرك شيئًا من أمور هذه الدنيا. وهو اعتراض في غير محله، ومع ذلك فقد سمعناه حتى صُمّت آذاننا لسماعه، بحيث اضطررنا إلى إطالة الكلام في هذا الشأن تقريرًا لحقيقة يجب أن ترسخ في الأذهان، وهي أن هذا الولد الصغير الذي ندلِه إنما هو الرجل بعينه، وأن الرجل سيكون في كبره كما صنعته في صغره. أما وسائل تدليل الولد وبالتالي إفساد تربيته والجناية عليه، بل علي الوطن والهيئة الاجتماعية بإجمالها، فكثيرة وعلي اختلاف في النوع والطريقة؛ وذلك أننا نفسد عقل الولد بكثرة المديح له، والثناء عليه، والإعجاب بكل حركة يأتي بها، ونفسد أخلاقه بتركنا إياه يصنع كل ما يريده، ويفعل كل ما يرغب فيه.

ونفسد قلبه بتجاوزنا كل حد في الاهتمام به، والحنو عليه، والحب له حتى لقد رأينا حب بعض الوالدين لأولادهم أقرب إلى العبادة –نستغفر الله– منه إلى الحب الوالدي.

ولا يخفى أن الجري مع الولد علي مثل تلك الطريقة يؤدي إلى نتيجة سيئة، بل إلى أسوأ النتائج وأعظمها شرًا، ونريد بها الكبرياء والرخاوة، وهما جرثومتان لكل فاسد من الأخلاق وسافل من الطبائع، فمن الخرق في الرأي أن تسوق أيها الوالد ابنك بيدك إلى هذه الهاوية، وأنت مكلف بأن تقوده إلى السعادة والهناء.

بل من الجريمة أن يكون الآباء والأمهات وسيلة لشقاء أبنائهم متى كبروا وشبوا، وكانوا هم السبب في تلك التعاسة. وليس في اللغة ألفاظ نستطيع أن

نعبر بها ما تصير إليه حالة الأولاد الذين تفسد بسبب الرخاوة أخلاقهم، وتسفل بواستطها طباعهم. بل لا يستطيع أحد أن يتصور إلى أيه حال يصير الأولاد الذين ساءت تربيتهم بسبب إفراط والديهم في حبهم، وتدليلهم، وتجاوزهم الحد في إجابتهم إلى كل ما يروق لذوقهم، ويحلو في نظرهم، وتميل به نحوه شهيتهم، ويدفعهم إليه كسلهم، وتجتذبهم نحوه أميالهم.

ومما يعدل هتاف الوالد أو الأم لبيك، كلما مرت بخاطر الولد صبوة ما نراه في كل يوم من كثرة الثناء علي الأولاد لكل حركة يأتونها، والإعجاب بهم لكل كلمة يقولونها. وأضر من ذلك أن بعض الوالدين لا يكتفون بثنائهم الخاص، بل هم يزيدون عليه ثناء الأقارب والمعارف، فتراهم يكررون ما قاله أولادهم ويضحكون فرحين متهللين لكل لفظة فاهوا بها، مستعيدينهم ما قالوه، ضاحكين لهم، معجبين بذلك الذكاء الباهر، والعقل الراجح، إلى أن يصبح الولد وهو يظن نفسه قد بلغ أقصي درجات المعرفة وأبعد مراقي الحكمة والفلسفة.

ولقد عرفنا رجلا كان يقول عن ولدين له، عمر الأول ثلاث سنوات، والثاني سنة واحدة، أن في رأس كل منهما من الفطنة والعقل ما لو وزن لرجحت زنته علي ثقل جسمي أبيه وأمه. واستمر علي هذا القول إلى أن كبر الولدين، وأرسلهما إلى المدارس، وعلمهما العلوم، وجعل الواحد طبيبًا، والآخر مهندسًا، وهما لا يزيدان إلا احتقارا له، وامتهانًا لأمهما؛ لأن الطريقة التي جرى عليها الأب واتبعتها الأم معهما وَلّدت فيهما الاعتقاد بسمو عنصرهما عن عنصر أبيهما وأمهما، حتى مات الأب وفي فؤاده من ذلك حسرة، وعاشت الأم وهي لا تجسر أن تفاتح أحدهما بكلام إذا لم يبادرها هو بالحديث، ولا يظنن أحد أننا نبالغ في ما نقوله في هذا الصدد، فإنما نحن دون الحقيقة الهائلة في كل ما نذكره

عن الأولاد الذين تفسد أخلاقهم بالدلال، حتى لقد رأينا رأي العين في بيروت ولدًا لا يتجاوز عمره العشرة أعوام يضرب أمه وشقيقته، ثم يسوق الواحدة تلو الأخرى إلى المكان الضيق القذر، ويقفل عليهما فيه ساعات من النهار، وإذا جاء أبوه في المساء لم يسمع من امرأته إلا كل ثناء سار علي ذلك الابن. ولم تكن هذه الأم تشكو ابنها إلى أبيه مخافة أن يؤدبه أبوه بانتهاره فيتكدر، أو بصفعة فيتألم، وفضّلت أن تفقده بتمامه علي أن تراه مستاءً متكدرا مدة نصف ساعة. وتقول أنها فضلت فقده علي تربيته؛ لأننا رأينا هذا الغلام فيما بعد شابا لا تكاد عين أمه تقع عليه مرة في الشهر.

ويكفي من الأمثال في هذا الموضوع ما ضربناه إلى الآن، فليسمح لنا حضرات القراء في الخروج من هذا الباب للكلام علي ما يجب علينا اجتنابه في التربية، وما ينبغي لنا الحرص عليه مع الأولاد؛ لنكسبهم صفات الرجولية الحقيقية.

ولقد تقدم لنا القول أن الولد كالغصن الرطب، يلتوي إذا عوجته، ويستقيم إذا قومته، وأن الخطة التي تجري عليها معه وهو في سن الطفولة تكون بمثابة الطابع الذي تبصم به ما بين يديك من المواد اللدنة، فإذا قست أصبح من المستحيل رفع ذلك الطابع عنها وإزالة أثره بالكلية منها.

وإذا كان الأمر كذلك فإنه ينبغي للذين يقع عليهم الاختيار للقيام بالعمل العظيم –أعني بعمل التربية– الذي يتوقف عليه قيام الشعب، أو سقوطه، ونريد بهم الآباء، والأمهات، والمعلمين، والمربيات أن لا يغفلوا طرفة عين عن هذا الواجب المقدس، والفرض الشريف السامي، فإنهم منتدبون إلى ذلك من قبل الله تعالى نفسه، مسئولون فيه لدى أنفسهم، والعائلة، والوطن، والإنسانية بإجمالها، فمن أحسن منهم عمله فقد خدم نفسه، وعائلته، وبلاده، والدنيا

كلها. ومن قصر في ذلك فقد أساء إلى نفسه، وعائلته، وبلاده، والإنسانية بأكملها.

وأول ما نوصي به في ختام فصل التربية في البيت أنه ينبغي أن يُعنى ببساطة ملابس الصغار وكسوتهم عناية خاصة، فإن الملابس من أعظم العوامل المؤثرة علي عقول الأولاد. ولقد تنبه الوثنيون أنفسهم إلى هذا الأمر، فقال أحد قدماء فلاسفتهم: أنه ينبغي أن تكون عيشة الأولاد خشنة، وملابسهم بسيطة مشابهة لملابس الأولاد الذين يختلطون بهم.

وقال السيد ديبانلو: أن إعجاب الأولاد بملابسهم، واستكبارهم بغلاء ثمنها، وحسن زيها أعظم ما يفسد أخلاقهم، ويعكس تربيتهم. فمن الواجب إذًا أن يبث في عقولهم منذ الصغر كره التأنق في الملبس، والاحتقار للظواهر الخارجية، والازدراء بالتزين والتبرج، واستصغار تصفيف الشعور، وحمل الحلي، واستعمال روائح الطيب إلى غير ذلك مما أصبح في هذه الأيام خطة يدرج عليها البنون جريا في أثر آبائهم. فإنك لو نظرت بعين الإمعان إلى فئة من الناس، بل إلى أكثر أقوامنا وجدتهم لا اهتمام للوالدين إلا باختيار ملابسهم، ولا اهتمام للأولاد إلا في تصفيف الشعور، والتأنق في الكسوة وتزويق الثياب، حتى أنك لترى الفتاة، أو الغلام أشبه بذنب الطاووس في كثرة ألوانه وتألق لمعانه، وهما كالطاووس في الإعجاب بتلك الألوان، والمفاخرة بذلك اللمعان.

ثم أنك لترى الفقير منا في مظهر الغني الموسر، وإذا نظرت إلى امرأة رجل من ذوى الدرجة الوسطى، أو بصرت بابنته خارجه من معبد، أو ذاهبة إلى زيارة، ورأيت ابنه سائرا إلى المدرسة، أو عائدا من نزهة، فلا يخيل لك إلا أنهم من ذوى الثروة الواسعة والمال الكثير.

والغريب من أمر بعضهم، بل من أمر أكثرهم أنك تري الرجل منهمظو

وامرأته، وابنه، وابنته خارجين في أجود كسوة، وأجمل زي، وسلاسل الذهب تروح وتجيء علي صدورهم، وخواتم الماس يتألق بريقها في أصابعهم، فتحسبهم أنهم إنما ينفقون من فضلة ما لهم، وأنهم عن سعة يفعلون. فإذا فتحت ذلك الكتاب المقفل ونظرت في باطن صفحاته تجلت لك حقيقة رائعة تقف لديها موقف المتسائل: أجن هذا الرجل، أم لعب الشيطان بعقله؟ ذلك أنك إذا أنعمت النظر في تلك الملابس الجميلة، والحلي الثمينة، وجدت أن هذا المتوسط الذي يظهر الغنى المثري إنما يتمايل مع ملابسه الجميلة في رداء من الدين، ضافي الذيول متجرر الأطراف.

وما قاده إلى هذه الحالة وأوقعه في هذه الورطة إلا ما عوده عليه والداه عندما كان صغيرًا من حب التزين بملابسه، مع غض النظر عن زينة الصفات والأخلاق. فكبر علي هذا المبدأ الوخيم، وربي عليه أولاده وبناته الذين يعدهم لأن يكونوا آباء وأمهات، ولكن علي شاكلته امرأته التي ربيت علي مثل ما ربى، أو تطبعت بعد خروجها من بيت أبيها بأمياله، فأصبحت شريكة له في إثم تلك التربية الفاسدة التي يسيّرون أولادهما في طريقها.

ومن مؤثرات التأنق في الملبس أن الولد يكبر علي مبدأ الترف، والإسراف، والرفاهية في المعيشة، فيصبح وخطرت النسيم تجرح خديه.

ويشب علي اعتبار الناس بملابسهم كذلك الذي دعا أصدقاء له إلى وليمة ولم يكن أحدهم –وهو أكثرهم فضلا. وأوسعهم علما، وأرجحهم عقلا– في لباس العيد، فأجلسه في أخريات القوم دون أن يحفل به، أو ينظر إليه. فخرج الرجل خلسة ثم عاد وهو في أحسن لباس، وأثمن حلية، فكان كأنما هو الأمير قد وفد إلى ذلك المحفل، ولما أراد صاحب الدعوة أن يجلسه في صدر القوم خلع رداءه عنه، ووضعه في ذلك المكان، ثم خرج يهزأ بالرجل وأشياعه.

وفي ذلك عبرة. ولكن ما أكثر العبر وأقل الاعتبار.

ذلك أقل ما يقال في ضرر تعويد الأولاد علي التأنق في ملابسهم، والاكتراث بأنواعها، والاهتمام بأزيائها، وهو خطر علي مستقبل ابنك أيها الأب، يجب أن تعمل علي اجتنابه بما في وسعك من وسائل الوقاية والانتباه، وينبغي في معاملة الأولاد استعمال الشدة واللين معا، والجري معهم علي خطة الصبر وطول الأناة، وتعويدهم علي كره الكسل والبطالة، وحب الاجتهاد والعمل، واحترام الشيوخ، واعتبار من كان أكبر سنا ومقاما منهم، والاحتفاظ بالمبادئ الدينية والأصول المذهبية، وعدم الاستقلال بأمور أنفسهم، مع تعويدهم من وجه آخر علي عدم الاتكال علي الناس، وحَملهم علي الاعتقاد بأن كل مرء مسئول عن أمره أمام نفسه.

وإياك ومداهنة الأولاد، والتملق إليهم؛ لأن ذلك يبث فيهم روح الكبرياء والإعجاب بالنفس، وهما من أشد العوامل تأثيرًا في إفساد التربية.

ويجب علي الوالدين والمربين أن يتوخوا الصدق في كل ما يقولونه أمام الولد، بحيث يشب علي حب الحقيقة، والاعتصام بحبل الصدق، وكره الكذب، والابتعاد عن النفاق.

ومما تجب مجانبته أن يجري الأولاد مع عاطفة الغضب، فإن الجري في مثل هذه الخطة يؤدي بهم إلى أسوأ الغايات وأقبحها. وأعظم ما يجعل الأولاد شديدي الحدة سريعي الغضب: شدة تنميق الأمهات، ولاسيما إلى الولد الوحيد، والمسارعة إلى أعطائه كل ما طلب واشتهي حالما تسقط له دمعة. وعندنا أنه خير ألف مرة أن يبكي الولد ساعة من أن تمسح الأم أو المربية دمعته بقبله، وتبادر إلى إسكاته بإنالته ما يطلبه؛ لأن تركه يبكى مرة يمنع عنه أضرارًا جمة، في حين أن إنالته مطالبه مخافة أن يبكي يجعله أظلم أهل الأرض،

وأبعدهم استبدادا بنفسه وبكل من حوله. وأفضل طريقة للتبع في مثل هذه الحال: هي أن نرفض مطالب الأولاد إذا لم تكن في محلها، وتصر علي رفضها ولو بكوا وانتحبوا، ثم نمنحهم ما يطلبون متى عادوا إلى الهدوء واخلدوا إلى السكينة، وبذلك يعلمون أن البكاء لا يفيدهم، فلا يلجأون إليه مرة أخري.

وفوق ذلك كله فإنه ينبغي لنا أن ننزع من قلوب الأولاد عاطفة الحسد والبغض، ونزرع فيها بذار الحب والصداقة، ونعودهم علي الطاعة والرضوخ، ولكن مع تبصر وروية، بحيث لا يصبح الولد رجلا سهل الانقياد لكل ما يريدونه منه.

وعلِّم الولد أيضًا المثابرة والثبات، فإنهما في غالب الأحيان وسيلة النجاح وطريق الفلاح. ولم نرَ أضر من التقلب وكثرة التنقل من أمر إلى أمر، وكم من شاب أضاع حاضره وفقد مستقبله؛ لعدم ثباته وكثرة تقلبه.

ومما ينبغي تعويد الأولاد عليه منذ نعومة أظفارهم الكرم علي غير إسراف، والاقتصاد علي غير بخل، وبالتالي معرفة قدر المال، ولكن دون الاستعباد له، وإنفاقه بغير شح ولكن في موضعه. وعلي كل حال فإنه ينبغي أن لا يُعوّد الأولاد علي أن ينفقوا ولو درهما واحدًا في غير الأمور الحاجية والحاجات الضرورية؛ لئلا يكون ذلك باعثًا علي بث روح الإسراف والتبذير في قلوبهم.

وقد رأينا كثيرين ترك لهم آباؤهم ثروة طائلة ومالا غزيرا، فلم يمضِ عليهم زمن طويل حتى أصابتهم سهام الفقر، وخيمت عليهم الفاقة، والسبب في ذلك تعويد آبائهم إياهم منذ الصغر علي الإنفاق بغير حساب، كذلك رأينا أقوامًا يَشقون بثروتهم؛ إذ تصبح أموالهم بمثابة العجل الذهبي لهم، فهم أرقاء المال الذي كسبته أيديهم، وعبيد الثروة التي وصلت إليهم، وما عبد جل هؤلاء –إن لم نقل كلهم– هذا المعدن الحقير إلا لأن آبائهم اختاروا لهم بشحهم هذه

الطريق وهم لا يعملون.

إذن فالكرم إذا جاوز حده أصبح إسرافًا وتبذيرًا، والاقتصاد إذا بولغ فيه أضحى ضنًا وبخلًا، وكلاهما رذيلة يجب اجتنابها، وهي كَسِوَاها من النقائض لا تجتنب إلا بتعويد الصغار علي كرهها منذ الفطام.

هذا وينبغي أيضًا أن يُربى الأولاد منذ نعومة أظفارهم علي التأدب والاحتشام في كل شيء: سواء في الكلام، واللبس، والأكل، والشرب، والجلوس، والوقوف؛ لأن عدم العناية بذلك في صغر السن يقود الولد إلى طريق غير مأمونة؛ إذ يتخلق بأخلاق، ويتلبس بعادات لا تُرضي أحدًا من الناس.

وبالإجمال أن التأدب والاحتشام في تلك المسائل كلها يحفظان للإنسان مقامه ومنزلته؛ إذ يكون قد حفظ بهما مقام سواه، والناس يفعلون بك ما تفعله أنت بهم، وبالكيل الذي تكيل به يكال لك.